

صديقه جمال الدين، ولكنه لم يصرف عنها، لأنها منبعثة من قلبه وإيمانه، لا من تكليف حاكم، أو من تعيين في منصب، ورسالته هي التعليم، فأنشأ الجمعية الخيرية الإسلامية للتعليم وعقد الندوات العلمية، وألقى الدروس والمحاضرات، وكان الدرس الذي يمكنه من أداء رسالته العلمية هو تفسير القرآن، فهو معجزة الإسلام، وفيه شريعته، وهو حبل الله الذي يعتصم به المسلمون، وهو برهان الله ونوره المبين ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة: ١٦).

لقد وجهه شيخه الصوفي إلى القرآن وتدبره، وأسلم منهج لتفسيره، وهو فهم المعنى الإجمالي ثم التوجه بعد ذلك بصفاء نفسي إلى معانيه السامية، فإنه لا بد من أن تسمو نفس طالب علم القرآن، حتى يعلو إلى إدراك سموه، وإنك لترى الإمام محمد عبده يتجه في تفسيره اتجاهها لم يملكه أحد من المفسرين، فإن المفسرين من قبله كانوا إما أن يعتمدوا على الأثر، وإما أن يعتمدوا على ما تؤديه الألفاظ من معان، وما يشتمل عليه القرآن في ألفاظه وجمله وأساليبه من بلاغة، وقليل منهم من كان يغوص في تدبر هذه المعاني - كما قال الغزالي - فوراها آفاق للتدبر والتأمل، وقد حاول الإمام بالتزامه منهاج التدبر في المعاني أن يوجه أذهان تلاميذه إلى أسرار المعاني القرآنية، وإنك تقر ما نقل من تفسيره - وأحسب أن النقل كان مقرباً لما قاله الإمام وليس محققاً لكل ما قال، ولا مصوراً لكل ما أراد - فتجد المحاولة الجدية لمعرفة ما في آيات القرآن من مرام وغايات، وتقرأ تفسير آيات كتبها بقلمه كتفسير قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (البقرة: ٢١٣) فتجد فيها المحاولة بينة رائعة عظيمة.

والإمام في تفسيره كان حريصاً على تنقية الإسلام وتفسير القرآن من الشوائب، وإن طائفة كبيرة من الإسرائيليات دخلت في تفسير القرآن، فكانت حججاً حاجزاً عند بعض المفسرين دون التغلغل في إدراك معانيه فكان من عمل الإمام في دروسه أن أزال هذه الغواشي، فيما نشر، لتبدو صفحة القرآن متألقة ونورها بينا.